Journal Of the Iraqia University 64-2(31-12) December(2023)

ISSN(Print): 1813-4521 OnIine ISSN:2663-7502
Journal Of the Iraqia University
available online at: https://www.iasj.net/iasj/issue/2776

" الواقع التعليمي في السلطنة العثمانية: بين أعوام ١٤٣٢-١٥١٨م بلاد الشام أنموذجاً"

م. د : احمد حافظ ابراهيم

وزارة التربية المديرية العامة لتربية صلاح الدين

The educational reality in the Ottoman Sultanate: between the years 1432-1518 AD, the Levant as a model

D.Ahmed Hafiz Ibrahim

alzawydahmd96@gmail.com

10.58564/MABDAA.62.2.2023.461

Abstract:

European orient lists reached a summary of the image of the Ottoman Sultanate in one way or another, through campaigns, seminars, and writings that spread doubts and confusion in the hearts of readers and interested people about the history of the Ottoman Sultanate, which was temporary in its pursuit of secrets, problems, and achievements.This is what prompted the researcher to carry out a process of collation of sources and references, with the aim of shedding light on those hypotheses raised by the West, in light of a fierce attack on the Ottoman performance during his rule of the Middle East region for a period exceeding four centuries. The research chose the scientific aspect of the Ottoman Sultanate to study it in an academic methodical manner, where This research came under the title "The educational reality in the Ottoman Sultanate: a slandered reality, between the years 1432-1518, the Levant as an example."**Keywords**: education - the Sultanate - Muhammad the Conqueror - schools - modern sciences - medicine - Selim II - universities - students.

الملخص

سعى المستشرقون والباحثون الأوروبيون إلى تشويه صورة السلطنة العثمانية بطريقة أو بأخرى، عبر الحملات والندوات والمؤلفات التي تبث في نفوس القرّاء والمهتمين الشكوك وتثير فيهم الحيرة، حول تاريخ السلطنة العثماني وما يحمل في طياته من خفايا وإشكاليات وإنجازات.

وهذا ما دفع الباحث للقيام بعملية تقميش للمصادر والمراجع، بهدف تسليط الضوء على تلك الفرضيات التي أثارها الغرب، في ضوء هجمة شرسة على الأداء العثماني خلال حكمه لمنطقة الشرق الأوسط لمدة تجاوزت الأربعة قرون، وقد اختار البحث الجانب العلمي للسلطنة العثمانية لدراسته بطريقة منهجية أكاديمية، حيث جاء هذا البحث تحت عنوان " **الواقع التعليمي في السلطنة العثمانية: واقعٌ مفترى عليه، بين أعوام ١٤٣٢-١٥١٨ بلاد الشام أنموذجًا**"

الكلمات المفاتيح: التعليم – السلطنة – محمد الفاتح – المدارس –العلوم العصرية – الطب –سليم الثاني– الجامعات – الطلاب.

أولاً– نبذة تاريخية عن الواقع التعليمي في الدولة العثمانية:

لقد شاع أن اليد العليا للتخلف في مجال التعليم ومناهجه في الدولة العثمانية، وأن التأخر في اللحاق بركب تلقي العلوم العصرية، سببه الأول طريقة السلطنة العثمانية في إدارة البلاد ورسم العلاقات الدولية مع الخارج، غير أنّ هذا الكلام لا يقنع عاقلاً في العصر الحالي، ذلك بعدما رأى وسمع عن المدارس والجامعات وما حملته المصادر والمراجع وما ذكرته عن التعليم خلال عهود مبكرة من السلطنة العثمانية، فلقد كان موقف الدولة العثمانية جلياً منذ تأسيسها من العلم والعلماء، ففي وصية عثمان ابن أرطغرل مؤسس الدولة العثمانية لابنه أورخان جاء فيها " يا بني: أوصيك بعلماء الأمة، أدم رعايتهم وأكثر تبجيلهم، وانزل على مشورتهم فإنهم لا يأمرون إلا بخير (ابو غنيمة،١٩٨٦م،٢٤٨)، فبادر السلطان العثماني أورخان (ثاني السلاطين العثمانيين) الذي حكم بين أعوام (١٣٢٤ – ١٣٦٢ م) (كولن،٢٠١١م،١١)، على بناء أول مدرسة

نموذجيـة، وسـار علـى خطـاه مـن بعـده سـلاطين الدولـة، فانتشـرت المـدارس والمعاهـد فـي بروسـة (بورصـة) وأدرنـة وغيرهمـا .(الصلابي،٢٠١٠م،١٤١).كانت النظام التعليم في الدولة العثمانية – قبل البدء بما عرف عهد التنظيمات– في القرنين الخامس والسادس عشر ميلادي متعلقاً بالشأن ديني، يتولاها أرباب الطوائف الدينية، فالمفتي الذي يعينه السلطان هو الذي يدير أمر تربية أبناء الطائفة السنية وتعليمهم، ويترك له حرية تسيير شؤون الطائفة والاهتمام بأمور الأوقاف والمؤسسات الدينية والتعليمي، وأما التعليم لدى الطوائف المسيحية فقد تجسد في الأديرة والكنائس. فلهم الحرية في إنشاء المؤسسات والقيام نشاطاتهم برعاية مرجعاتهم الروحية مستندين على ذلك بنظام الملل. وتعتبر الكنيسة المارونية، هي المؤسسة الدينية الوحيدة في السلطنة، التي لم تتبع بشكل كلي لإدارة السلطان. وقد منحت الدولة العثمانية بقية الطوائف المسيحية الحق في إنشاء مدارسها الخاص بها منذ أواخر القرن الثامن عشر، إضافة إلى التعليم الديني، عرفت بعض المناطق نوعاً آخر من التعليم، هو تعليم الارساليات، ومما دعم انتشار هذه الإرساليات نظام الامتيازات التي منحته السلطنة العثمانية للدول الأجنبية.

ثانيًا– التعليم في القرنين الخامس والسادس عشر ميلادي " أولية – تطوير – تطبيق":

تجدر الإشارة أن السلطان محمد الفاتح (١٤٣٢ – ١٤٨١ م) ، قد بذل جهوداً كبيرة في نشر العلم وإنشاء المدارس والمعاهد، وأدخل بعض الإصلاحات في التعليم، وأشرف على تهذيب المناهج وتطويرها، وحرص على نشر المدارس والمعاهد في جميع المدن الكبيرة والصغيرة، وكذلك القرى (عبد الهادي،٢٠٠٩م،٦٨٨). وقد أوصى السلطان محمد الفاتح ابنه بايزيد: "يا بني قرّب منك العلماء، وارفع من شأنهم، فانهم ذخيرة الأمة في الملمات" (ابوغنية،١٩٨٦م،٢٢_٢٤)كما حرصت السلطنة على العلوم الشريعية، فقد أبدت اهتماماً لم يسبق له مثيل بالفقهاء (العلماء) الدينيين الذين أقحمتهم في جهاز الدولة، عن طريق النظام الذي أدخلته إلى الكليات، وفرص الوظائف التي وفرتها لهم ونظمتها، وهناك من الشواهد ما يدل على أن التعليم في المدارس الإسلامية كان حتى القرن السادس عشر قد سبق النُظم التعليمية الأوروبية، وكان الإعداد للمناصب الدينية يتم وفق تقليد عريق، أعاد محمد الفاتح تنظيمه (مصطفى،١٩٨٨م،١١٦_١٢٠). ولقد بلغت مكانة العلماء درجة تفوق مكانة السلاطين، فإن السلطان العثماني لم يكن لينفذ أي قرار سياسي إلا بعد الحصول على فتوى يصدرها مفتي إستانبول (شيخ الإسلام) تقر موافقة هذا القرار لأصول الشريعة، وكثيراً ما أدى رفض المفتي إصدار فتواه إرغام السلطان العدول عن مشروعاته، بل إن تصريح المفتي بأن السلطان لم يكن يحترم مبادئ الشريعة، وأنه بالتالي غير صالح لتولي الحكم كان كفيلاً بالتمهيد لخلعه (عبد الرحيم مرجع سابق، ص ١١٥.).إنّ الاهتمام بالعلم والشريعة كان يزيد وينقص عند العثمانيين ، تبعاً للمراحل التي مرّت فيها السلطنة، ففي عهد السلطان سليم أول وفي سنة ١٥١٨م، أقيمت صلاة جامعة في المسجد الذي أمر ببنائه في دمشق على مقربة من قبر محي الدين بن العربي، وبني إلى جانبه مدرسة كبيرة، ولا يزال الجد والمدرسة حتى يومنا هذا من أبرز المعالم، وفي عهد السلطان سليمان القانوني أتم بناء مسجد ومدرسة على مقربة من قبر أبيه السلطان سليم ، ويشمخ هذا المسجد والمدرسة حتى يومنا هذا شاهد صدق على مدى ما بلغته المهارة الهندسية التركية من رقي وفن، وواحداً من أبرز المعالم الحضارية العثمانية الإسلامية، كما أمر بتشييد موضع نظام لجر المياه إلى اسلام بول، وقام بتنفيذه المهندس التركي الشهير سنان الذي بنى خمسة أقنية فوق قناطر خاصة لتوزيع المياه على جميع أنحاء اسلامبول (ابو غنيمة،١٩٨٦م،٢٥٥)ومن الأدلة على إهتمام العثمانيون بالعلوم الشريعية أيضًا ما نقله المؤرخان جونيان وفان قافار، في كتابهما " تاريخ العالم " أن مفتي الإسلام كان مرجع السلطنة العثمانية في الأمور الشرعية والمدنية على حد سواء، وأنه كان يتمتع بمرتبة تسمو على مرتبة الوزراء (ابو غنيمة،١٩٨٦م،٢٦٣).

- **أشكال التعليم:**

كان التعليم بشكل عام عند العثمانيين يقتصر – قبل عصر التنظيمات–، على تعليم الأمور الدينية والعسكرية باستثناء الأماكن القريبة من العاصمة أو السلطان. وقد شاع في السلطنة العثمانية ايضاً نظام تعليم الكبار في المدارس التقليدية الإسلامية، التي كانت مخصصة لتعليم العلوم الدينية، ونظام تعليم الصغار في مدارس الصبيان «الكتاتيب»، التي أقامها أصحاب الخبرات في الأحياء، والمدن، والقصبات، والقرى، وكانت نسخة بدائية من المدارس الابتدائية، وتولى التدريس في كلا النوعين علماء الدين . (ابراهيم،١٩٧٣م،١٤٦)وكان يطلق على الأستاذ في «الكتّاب» اسم «الشيخ» ، أو « المؤدب» ، أو « المطوع » في الجزيرة العربية (العيدروس،١٩٩٠م،٣٩١_٤٣٤) . وكان هناك بعض كتاتيب للبنات، ويطلق على الشيخة «المعلمة» لقب « الخوجاية » ، وكان التعليم في « الكتاب ، مجانا(الجندي،(ب،ت)،٣) ، وما كان التعليم الأولي عند الطوائف المسيحية ليختلف في جوهره عن التعليم عند المسلمين، أي أنه كان تعليماً دينياً، ويتم في كتاتيب، أو في الأديرة والكنائس. وكان يضاف إليه تعلم «اللغة السريانية» (اوغلي،١٩٩٩م،٧١١)

ولم يقف اهتمام الدولة العثمانية بالعلماء عند هذا الحد بل كان اهتمامهم الواضح بالأماكن المقدسة وأضرحة القادة والعلماء، فبعدما دخل سليم الأول دمشق أمر بترميم المسجد الأقصى، وقبري صلاح الدين، والشيخ الأكبر مدي الدين بن عربي كما شيد مسجداً باسمه وما ميز الدولة العثمانية أيضاً وساعد على انتشار العلم بسهولة، حرية التنقل في ولاياتها دون حواجز أو عوائق (المحامي،١٩٨٣م،١٩٢).لذلك السبب ترك العثمانيون بصماتهم في شتى المجالات وفي كل الأماكن التي وصلوا إليها، فلقد برعوا في فنون الخط العربي الذي لا يزال يزين واجهات المساجد، وقد حافظوا على أندر نسخ من المصاحف الشريفة ومنها مصحف الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، الذي لا بقي موجوداً في المكتبة السليمانية في إسلام بول حتى العام ١٩٦٥م، وأن أعظم المصاحف المخطوطة كتبت بيد الخطاطين الأتراك، ولقي الخط العثماني اعتباراً كبيراً لدى العالم الإسلامي بأسره، ولقب " خطاط " رسمياً كان يلزم لحيازته بجدارة أن يعمل الطالب مع خطاط واحد على الأقل، ويحصل منه على إجازة موقعة بتوقيعه (اوزتونا، ١٩٨٨. م،٥٤٧).وقد برع العثمانيون في كثير من العلوم وأضافوا أشياء جديدة يصعب حصرها بالتفصيل فقد حافظوا على أعلى المستويات العالمية في مداواة الأمراض العقلية والنفسية حتى القرن التاسع عشر (اوزتونا،١٩٨٨م،٥٤٧). ومن الأمثلة على ذلك اهتمام الفاتح بعلوم الطب أيضاً، حيث أوعز إلى العالم الشيخ أق شمس الدين بتدوين علمه لينتفع به الناس فألف كتاب بعنوان " مادة الحياة"، الذي كان يعتبر من أهم المراجع الطبية لعصور طويلة التي تبحث في علم الميكروبات والجراثيم الناقلة للأمراض (ابو غنيمة،١٩٨٦م،٢٤٩).وحين بنى مسجده الذي أطلق عليه اسمه في إسلام بول، بنى إلى جانبه جامعة علمية، والحق بها مستشفى يضم سبعين سريراً، ليتدرب فيه الطلبة الذين درسوا الطب في الجامعة، وأطلق على المستشفى اسم دار الشفاء، واستقدم له أشهر أطباء عصره من مسلمين وغير مسلمين، ووضع نظاماً للألقاب العلمية فأطلق على المدرسين الكبار في الجامعة لقب " استاذ " وعلى مساعديهم لقب "معيد" (ابو غنيمة،١٩٨٦م،٢٥٠).ومن الأمثلة على اهتمام العثمانيين بالعلم هو ما أتقدم عليه أيضاً السلطان محمد الفاتح وذلك بإتباع نظام تعليمي جديد، فلما فتح محمد الفاتح القسطنطينية، أمر بتأسيس مدرسة على مقربة من مسجد أيا صوفيا، وعهد بإدارتها الى العالم المؤمن الشيخ مولا خسرو، ووضع لهذه المدرسة نظاماً خاصاً لم يلبث أن طبق في جميع مدارس الدولة العثمانية. وبموجب ذلك النظام، قسمت الدراسة إلى مرحلتين، تبدأ الأولى فيها بتدريس العلوم الشرعية والتاريخ الاسلامي، والعلوم الرياضية، والعلوم الطبيعية ، وكان على طلاب هذه المرحلة أن يحفظوا أجزاء معينة من القرآن الكريم، وكانت الدراسة في هذه المرحلة تعرف باسم – دروس الخارج، وفي المرحلة الثانية، كان الطلاب يدرسون اللغة العربية ، ويتوسعون في دراسة الفقه الاسلامي، وتعطى أهمية خاصة لدراسة العلوم الرياضية والطبيعية بتوسع ، وكان بإمكان كل من ينهي المرحلة التي كانت تعرف باسم" دروس الداخل" ، أن من يتولى بعض الوظائف العادية في الدولة (ابو غنيمة،١٩٨٦م،٢٥٠).وقد بلغ عدد المدارس التي تدرس فيها العلوم الشرعية والآداب الشرقية حوالي ١٧١ مدرسة في إسلام بول وحدها، كان أشهرها مدرسة أيا صوفيا، ومدرسة السلطان أحمد، ومدرسة السليمانية، وجامعة المحمدية التي أنشأها السلطان محمد الفاتح ولقد برع العثمانيون في علم الرياضيات، والدليل على ذلك تلك الآثار والسفن والمدافع العثمانية (اوزتونا،١٩٨٨م،٥٣٥)، ويعد عالم الرياضيات التركي علاء الدين بن محمد المعروف باسم على كوشجو الذي أناط له السلطان محمد الفاتح تدريس الرياضيات في مدرسة آيا صوفيا ثم الجامعة التي أنشئها من أبرز علماء الرياضيات آنذاك، وكانت الجامعة التي أسسها السلطان العالم إلى جانب المسجد الذي سمي باسمه، علامة بارزة في خطة السلطان التي تهدف الى رفع المستوى التعليمي والثقافي في الدولة العثمانية، وكانت الدراسة في الجامعة مقسمة إلى مرحلتين على النحو التالي:

١. المرحلة الأُولى : يستطيع الالتحاق بها طلاب مدرسة آيا صوفيا وغيرها من المدارس العثمانية بعد أن يكونوا قد اجتازوا بنجاح المرحلة الثانية التي تعرف باسم "دروس الداخل"، وكانت الدراسة في هذه المرحلة تتم في ثمانية مدارس متجاورة بنيت حول مسجد السلطان، وهذه المرحلة تسمى بالدراسة – الموصلة الى الصحن، وهي مطابقة لنظام الدراسة الجامعية الاولى في الجامعات المعاصرة التي تمنح الطلاب درجة البكالوريوس أو الليسانس، وكان بإمكان المتخرجين من هذه المرحلة تسلم وظائف هامة في مؤسسات الدولة، وخاصة في المدارس، وكانت مدارس الصحن تسمى بالمدارس العليا (ابو غنيمة،١٩٨٦م،٢٥٢)

٢. المرحلة الثانية: وهي أقرب ما تكون الى نظام الدراسة الجامعية العليا المعمول به في الجامعات المعاصر والتي تمنح الطلاب شهادات التخصص العليا كالماجستير والدكتوراه والأُستاذية، وكانت هذه المرحلة تعرف بمرحلة دراسة والصحن، ولا يلتحق بهذه المرحلة الا الذين اجتازوا بنجاح مرحلة الدراسة الموصلة الى الصحن، وكانت الدراسة في هذه مرحلة، تتم أيضاً في ثمانية مدارس متجاورة بنيت هي الأُخرى حول مسجد السلطان الفاتح، وسميت هذه المدارس باسم المدارس الصغرى للتميز بينها وبين مدارس الصحن (ابو غنيمة،١٩٨٦م،٢٥٢_٢٥٣).

لقد كان اهتمام الدولة بالتعليم داخل مؤسساتها التعليمية ومؤشر ازدهارها أو تأخرها في ذلك، حيث أن التربية والتعليم عند العثمانيين في القرن السادس عشر ميلادي كانـ على أعلى مستوى في العالم، ويأتي بعد ذلك دور التعادل مع أوروبا، ثم دور التأخر عن أوروبا (اوزتونا،١٩٨٨م،٤٩٠).الحقيقة أنّ التعليم، وأنظمة التخصص العلمي التي أشرف السلطان الفاتح على وضعها تعتبر علامة حضارية بارزة قد قفزت قفزات رائدة على يديه، فقد كانت المدارس كما أشرنا سابقاً حريصون على إنشائها في كل مدينة تقع تحت سيطرتهم، ومنذ تأسيس دولتهم على يد عثمان أرطغرل كانت تدار بأساليب عادية بسيطة، وكان كل معلم يتبع الأسلوب الذي يريده، والأهم من ذلك أن الوزراء والسلاطين تنافسوا على إنشاء المدارس في العاصمة والولايات بجوار المساجد عادة ، وكان الطلبة يدعون " صوفتة " من كلمة صوفي العربية وكلمة " سوختة " الفارسية ومعناها الملتهب بحب الله والمعرفة (بروكلمان،١٩٩٣م،٤٨٠)وقد كان الطالب – قبل مرحلة التنظيمات– أي قبل حوالي أربعة قرون، "وتحديداً في العهد السلطان محمد الفاتح" يمر بأربعة مراحل ليصل إلى القمة أو أعلى مستوى أو منصب:

٣. الطلبة: وهم طلاب المراحل العليا (صوفته).

٤. الدانشمند (المستشار): وهم الطلاب الممتازون الذين يشبهون المعيدين أو الأساتذة المساعدين في الجامعات اليوم.

٥. الملازم: وهو الدانشمند الذي سجل رسمياً، وأصبح ملازماً في صفوف العلماء، وهو يشبه المعيد تحت إشراف الأستاذ، والممتازون من هؤلاء الملازمين يدعون (بقدوة العلماء المحققين) أي الذين يقدمون بحوثاً حتى يحصلوا على الدكتوراه (قدوة العلماء) أما الدانشمند الذي لم يصبح ملازماً فكان يعين في التدريس أو القضاء أو العمل الديني.

٦. المدرس: أي الأستاذ في الجامعة (سلطان،١٩٩١م،١٥٦_١٥٧).

أسباب التأخر العلمي:

ثالثًا– أنواع التعليم في الولايات العربية في بلاد الشام وعند الطوائف المنتشرة في المنطقة.

لقد كان التعليم في الولايات العربية في العهد العثماني (١٤٣٢–١٥١٨) حتى أواسط القرن التاسع عشر شأناً خارج وظيفة الدولة. فالتربية عدّت من اختصاص التعليم الديني، تقع على عاتق المرجعيات الروحية، فالسنة أمر تربيتهم وتعليمهم المفتي الذي يعينه السلطان، ويترك له حرية تسيير شؤون الطائفة، والاهتمام بأمور الأوقاف والمؤسسات الدينية والتعليمية (الغصيني،١٩٦٤م،١٧)، أما عند الطوائف المسيحية، فالتعليم كان موجوداً في الكنائس والأديرة. ولهم الحرية في إنشاء جمعياتهم ومدارسهم الخاصة تحت رعاية مرجعياتهم الدينية حسب لنظام الملة، تحديدًا الكنيسة المارونية، حيث عمد رجال الدين الموارنة الذين عادوا من المدرسة المارونية في أوروبا، إلى تأسيس مجموعة من المدارس، حيث لحقت باقي الطوائف بها ابتداءً من أواخر القرن الثامن عشر، في مختلف مناطق تواجدها (قبيسي،١٩٩٩م،١٠٨_١٠٩).

التعليم في الولايات العربية خلال الحقبة العثماني (١٤٣٢–١٥١٨) بيروت وفلسطين أنموذجًا:

إضافة إلى التعليم الطائفي، عرفت المناطق اللبنانية نوعاً آخر من التعليم، هو تعليم المبشرين والإرساليات. وهو يعود في جذوره إلى العام ١٥٣٥م، تاريخ توقيع الاتفاقية الفرنسية – العثمانية الأولى، التي منحت فرنسا بموجبها بعض الامتيازات التي أسّست للمهمة التي بدأت فرنسا تضطلع إليها منذ ذلك الحين، وهي حماية الكاثوليك في الشرق). يعتبر بعض الكتاب والمؤرخين أن سبب تخلف المسلمين، أو تأخرهم عن اللحاق بركب ترقي العلوم، يعود إلى الدولة العثمانية نفسها، التي كانت المسؤولة الأولى عن دينهم ودنياهم، لأنها تأخرت كثيراً في افتتاح المدارس في الولايات العربية العثمانية، فقد كان افتتاحها قريباً من مركز الحكم كما أشرنا، ولكن فات هؤلاء أنها قد قامت بما يتوجب عليها تجاه المسلمين في هذا الموضوع، فهي لم تقصر في نشر الدين الإسلامي وحماية المسلمين والبلاد الإسلامية، فاهتمت بجميع نواحي دينهم، ودافعت عن العرض والشرف (الجندي،(ب.ت)،١٥٩)ويبدو أن هذا التأخر عن اللحاق بركب التعليم كما اعتبر البعض مرده إلى الدولة العثمانية، فهي لم تهتم في ترقي العلوم في الولايات العربية بل كان محصوراً في العاصمة وما حولها واعتبر البعض الآخر أن العلوم في الولايات العربية لم تول العناية الكافية. ولكن لا يمكن أن نعيد أسباب تخلّف المسلمين في ترقي العلوم في بيروت والولايات العربية إلى الدولة العثمانية وحدها، فـ «تقصير» السلطنة العثمانية في فتح المدارس في المناطق العربية، مرده إلى عوامل عدة، منها:

٧. لم تعرف الدولة العثمانية فترة «سلام» طويلة، فطيلة عهدها كانت في حروب متتالية، فلم تعرف الدولة طعم الراحة منذ تأسيسها حتى سقوطها. لذلك كان همها الدفاع عن البلاد وتقوية الجيش.

٨. تركت الدولة العثمانية أمر التعليم للطوائف والملل، فنرى أن جميع الطوائف قامت بإنشاء العديد من المدارس، إلا الطائفة الإسلامية.

٩. كانت المدارس الإرسالية منتشرة بكثرة في بيروت، فترددت العائلات البيروتي المحافظة في إرسال أبنائها إلى هذه المدارس خوفاً من مغبة تغريبهم، ومحاولة التأثير على عقولهم (مدحت،علي،١٣٢٥هـ،٢٠٩_٢١٠).

١٠. ومن الأسباب التي أدت إلى إعراض المسلمين عن تلقي العلوم الحديثة، هو أنّ المسلم لم يكن همّه إلا أن يتعلم ابنه القرآن الكريم ويرتله على أيدي الشيوخ، أي في المدارس التقليدية الإسلامية (الجندي،(ب.ت)،١٥٨).

١١. تفاوت المستويات في التعليم بين العاصمة والولايات العربية، وذلك لإنشاء الجامعات والمدارس قبل عصر التنظيمات بجوار السلطان، كما نم الإشارة إليه آنفاً، وقد بقي هذا التفاوت ولو أقل حدّةً بعد الإصلاحات العثمانية، خاصة بعد شعور السلطنة بالضعف وتوالي الهزائم العسكرية، لتبدأ مواكبة التطور والتقدم الذي وصل إليه العلم بعد انقطاع ليس بالقصير (نخلة،١٩٨٢م،٣٢٩).

١٢. ومما أدى إلى تأخر المسلمين في طلب العلم، العقلية التي كانت تتحكم بغالبية الأهالي، والتي كانت تعتبر أنه من العار عليها أن ترسل أبناءها لطلب العلم وغايتها في ذلك كسب الرزق (الابيض،١٩٨٠م،١٠_١٦).

وعند مجيء العثمانيين إلى فلسطين كان هناك العديد من المؤسسات التعليمية التي كانت تقوم بدورها الكبير في تعليم الأبناء، وهذه المؤسسات هي المساجد والكتاتيب والزوايا والربط والمدارس، وهي عبارة عن مؤسسات دينية بالدرجة الأولى.

١٣. **المساجد:** على مدار التاريخ الإسلامي كان المسجد هو المكان الأول والأهم الذي يجتمع فيه المسلمون، وبالتالي من خلال المسجد تلقى الناس التعليم، ولا يخفى ما للمسجد من أهمية رفيعة، "فقد كان المسجد مركز إشعاع روحي وعلمي وأخلاقي وتشريعي فيه تؤدى الصلوات، وتعقد الندوات، وتلقى المواعظ، ويدرس الفقه، والتشريع الإسلامي، وقد انتشرت في فلسطين انتشار كبير (احمد،١٩٨٣م،٦٧).وكما تعاملت جميع الدول الإسلامية مع المسجد حسب تلك المنزلة، كذلك فعلت الدولة العثمانية، وأعطته حقه في دوره المميز في بناء الحضارة الإسلامية ولا سيما أنها دولة الخلافة التي تحمل رسالة الإسلام القائمة على الرقي والتقدم والعدالة الاجتماعية، ولقد كانت تقام في المساجد "حلقات يدرس فيها العلماء، وكانت فيها حلقات خاصة يدرس فيها نوع خاص من الفقه والحديث والتفسير، ويداوم عليها الطلاب إلى أن يجازوا من صاحب الحلقة أي يعطوا شهادة، وكانت هذه الإجازات معتبرة في دمشق والأزهر في مصر (النمر،١٩٧٥م،٦٦).

١٤. **الكتاتيب:** الكتّاب هو عبارة عن مدرسة صغيرة مكونة من غرفة واحدة فيها معلم، ومساعده ويكون المساعد غالباً تلميذاً أو أكثر من المتفوقين، والوضع يقضي بترتيب الصفوف في الكتاب بنسبة درجة تعليمهم، فيبدأ بحروف الهجاء ثم القرآن حسبما يقرأ ويكتب، فيعتبر كل فئة من الطلاب صفاً، وكانت الكتاتيب تفتح في مقامات الأولياء غالباً تخلصاً من الإجارة، وكان الطلاب فيها يجلسون على حصير، ومع كل واحد منهم كيس يضع فيه دفاتره وأقلامه، إذ كانوا يعولون على خطوطهم إذ لم تكن لهم كتب مطبوعة وكان الطالب القادر مادياً يدفع جعلاً يومياً وهو رغيف وبيضة ودراهم يوم الخميس من كل أسبوع وكان الطالب في الكتاب يتعلم الكتابة والحساب والقرآن، ومدة الكتاب تنتهي بختم القرآن ، وقد بنيت تلك الكتاتيب الخيرية التي قدمها علماء الإسلام المحليون وشيوخ القبائل والأمراء الإقطاعيون، وكثيراً ما كانت هذه المدارس (الكتاتيب) تغلق بموت ذلك الأمير أو الإقطاعي الذي أوقف الأموال لاستمرار سير العمل في تلك المدارس (القطشان،١٩٨٧م،١١)، وقد انتشرت هذه الكتاتيب بشكل كبير في فلسطين : في القدس وصفد ونابلس وغزة (الطباع،١٩٩٠م،٦٦٦).

١٥. **الزوايا والربط والخوانق:** وهذه المؤسسات الدينية الإسلامية تعد دور عبادة وعلم، وهي ذات أدوار مختلفة، دينية، وعلمية، واجتماعية، ومن الممكن عدها حقاً مراكز علم فقد كانت تدرس الفقه والحديث والقراءات والتصوف، وما يتصل بها بشكل خاص (عبد المهدي،١٩٨٩م،٦٦٦)، وتعتبر مؤسسات صوفية تعليمية فقد كان في القدس سبعة ربط وسبعة خوانق وأربعين زاوية. وقد تم إحصاء ثلاثين زاوية، وثلاث تكايا وأربع ربط في مدينة الخليل (العسلي،١٩٨١م،٢٨٨)، وكانت جميعها مؤسسات تعليمية، ووصفت بأنها نوادي ذلك العهد، تجرى فيها أحاديث ومسامرات علمية، فنية، صوفية، دينية، واحتفالات وفقاً لما تقتضيه آداب وأعراف تلك الطريقة وتعلم فيها، صناعات، علوم، آداب، ولغات كثيرة، ومن هذه الناحية كانت الربط والتكايا، والزوايا، مؤسسات تربوية وتعليمية لا مثيل لها بالنسبة لعصرها (اوزتونا،١٩٨٨م،٥٠٠).وقد تعددت المدارس التقليدية في العهد العثماني في الولايات العثمانية والعربية على حد سواء وكانت على الشكل التالي:

١٦. معاهد تعليمية خاصة بالصغار، تهدف إلى تعليم مبادئ الدين والقرآن.

١٧. معاهد تعليمية خاصة بالكبار، تهدف إلى تعليم العلوم الدينية والشرعية.

وكان الصنف الأول يعرف "بالكتاب"، أما الصنف الثاني منها فكان يعرف باسم "المدرسة" بوجه عام، وكان التدريس في هذه المعاهد التعليمية الصغيرة والكبيرة يسير وفق أساليب قديمة، لم تتغير وتتطور منذ قرون عديدة (الحصري،١٩٥١م،٣) باستثناء المراكز القريبة من العاصمة أو إدارة الحكم كما تم الإشارة إليه سابقاً، فالدولة العثمانية قبل "التنظيمات" لم تعتبر التعليم وبناء المدارس من الخدمات التي يجب عليها تقديمها للسكان، وتركت للأفراد حرية إقامة الكتاتيب والمدارس الدينية التي اقتصر التعليم فيها على التعليم الديني لإعداد الأئمة والوعاظ والقضاة والمفتين (عبد اللطيف،١٩٩٦_١٩٩٧م،١٦٨).وأما بالنسبة للإدارة في هذه المدارس فهناك أعضاء هيئة تدريسية في كل مدرسة كل يقوم بمهماته، وهناك مواعيد للحضور والغياب، وأوقات محددة للعطل الدراسية، وكان المدرس على رأس جهاز العاملين الكبير في المدرسة، بالإضافة إلى نواب التدريس والمعيدين وأمناء المكتبة ونظار وكتبة وجباة، وبوابين، وفراشين، وكتاب غيبة (التسجيل الحضور والغياب) ومؤدبي أيتام وشادين وأنواع كثيرة أخرى من الوظائف كالسقاية والشعالة والكناسة وغيرها (العسلي،١٩٨١م،١٠٣).وكان التلميذ في العهد العثماني (١٤٣٢-١٥١٨) يحترم المواعيد المدرسية احتراماً كبيراً ويقضي معظم النهار في المدرسة، ويحمل غذاءه معه أو يرسل إليه وربما يتناول ذلك في المدرسة حسب نظام الوقف فيها، وفيما يتعلق بإمكانيات المدارس وجاهزيتها العلمية فكانت متواضعة لدرجة أن كل مدرسة كانت مزودة بمكتبة، تحوي المصادر التي يحتاج إليها طلاب العلم، هذا إلى جانب المكتبات الخاصة التي كان العلماء يحرصون على اقتنائها، لتسهيل الإفادة منها على أنفسهم وعلى طلابهم (النمر،١٩٧٥م،٩٨_٩٩).وهذا يدل على أن هناك إدارة مدرسية منظمة، وبيئة تعليمية نظيفة، والتزاماً كاملاً من قبل الطلاب ورضا تاماً على أساليب التعليم، بمعنى أن المدارس في فلسطين في العهد العثماني قبل التنظيمات كانت على درجة عالية من الجاهزية الأكاديمية والمادية والنفسية، وبالتالي فإن هذا يضمن تحقيق أهداف العملية التعليمية بعكس ما صوره بعض الباحثين (شلح،٢٠٠٣م،١٠٩).لذلك فإن نظام التعليم هذا حافظ على تماسكه، ولعب الدور الرئيسي فيه أسلوبه في نقل المعرفة التلقينية الشفوية في أغلب الأحيان أي من الأستاذ إلى تلميذه، وكان العلماء يفاخرون بأسماء أساتذتهم الذين نالوا على أيديهم الإجازات في قواعد اللغة العربية والبلاغة والبيان والمنطق والحديث، والفقه والتصوف، وفيما بعد كان أبناء العائلات الكبيرة الميسورة يرسلون أبناءهم إلى استانبول للاستزادة منها (عماد،١٩٩٣م،١٨٢_١٨٣).

رابعًا- تمويل التعليم:

أما بالنسبة تمويل التعليم في المرحلة الأولى من العهد العثماني، فإذا كان هناك من سبب لاستمراره على نفس النسق (بقوته) الذي وجد منذ عهد المماليك، فإن ذلك يرجع لنظام الوقف، لأن نظام الأوقاف كان العمود الفقري للمدارس ومناهجها، وكان ينضوي مفهوم المدارس المساجد والزوايا والمكتبات..، كما كان العمود الفقري لمؤسسات الضمان الاجتماعي والمؤسسات الصحية كلها، ولقد تمثل دور السلطنة هنا بالإشراف على الأوقاف ومراقبة تنفيذ شروط الوقف، وصيانة العقارات الموقوفة، ومراقبة موظفيها.. (العسلي،١٩٨١م،٩٤)ولم يقتصر دور العثمانيين على دعم الأوقاف والمحافظة عليها، بل أضافوا إلى الأوقاف الكثيرة التي وجدوها قائمة من قبل أوقافاً جديدة، وأنشأوا منشآت خيرية تستدعي ربطها بأوقاف تكفل استمرارها (عباس،١٩٩٣م،١١١).فعلى سبيل المثال كانت أرض الأوقاف الزراعية تشكل مساحة واسعة من مجموع أراضي الدولة الزراعية، قد تقارب الثلث، وكانت هذه منحاً من السلطات أو الأفراد، وكان بعض المال مخصصاً للمساجد (أوقاف المساجد) وأوقاف لأبواب الخير للإنفاق على إنشاء المدارس والمكتبات والمستشفيات والمرتبات (العسلي،١٩٨١م،٩٦)

النتائج :

يبدوا أن العثمانيين حافظوا كثيراً على مستوى التعليم، وليس هناك أدلة على انحطاط مستواه أو تراجعه، لأن الدولة العثمانية لم تحافظ على المدارس القائمة فحسب، بل أنشأت مدارس جديدة، وحافظت على القديم وقامت بترميمه، وبالنسبة للمدارس التي أغلقت وساء حالها كان سببه ضعف واردات أوقاف تلك المدارس نتيجة سوء الإدارة أو التلاعب من قبل القائمين عليها، والجدير بالذكر أن مستوي التعليم في ولايات الدولة العثمانية لم يكن واحداً بل اختلف بين التعليم في بيروت عن التعليم في القدس أو استانبول حسب أهمية كل ولاية أو سنجق. لقد انتشرت التعليم الذي اتخذ التوجه الديني عند المسلمين وباقي الطوائف في البداية، ليأخذ منحنى جديد، مع وصول محمد الفاتح إلى الحكم، وإتباعه مجموعة من الإصلاحات العلمية، والتي طالت الطب والهندسة والحساب والعلوم العسكرية، ثم تطورت المناهج التعليمية، حيث أصبح لها هيئة ادراية ومحاسبة ومجموعة من المدرسين وبواب وغيرهم من الموظفين والعاملين، وكان العلم في البداية يتم

في المساجد والتكيته، ثم تم بناء المدارس والجامعات والكليات الحربية وحتى الطبية وقد ظهر المهندسون المهرة والمعمرجية وغيرهم.لقد أظهر هذا البحث، أن السلطنة العثمانية (١٤٣٢-١٥١٨)، لم تكن لتتخلف عن التعليم ومناهجه، فكانت الاهتمام به، يزيد وينقص، لما عانته السلطنة من فترات طويلة من الحروب، وانشغاله في الفتح وحركة الجهاد، إلا أنها مرت بعدة مراحل ضعف وقوة بما خص المضمار التعليمي.

قائمة المصادر والمراجع باللغة العربية

١٨.إبراهيم، علي،١٩٧٣م، الحياة والاجتماعية والفكرية في الدولة العثمانية (١٨٠٨ – ١٩٠٨)، استنبول د.د.ن.

١٩.أبو غنيمة، زياد،١٩٨٠م، جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك، ط٢، الأردن،، دار الفرقان.

٢٠.الأبيض، أنيس،١٩٨٠م، الحياة العلمية ومراكز العلم في طرابلس منذ الربع الأخير في القرن التاسع عشر حتى بداية عهد الانتداب الفرنسي، منشورات الجامعة اللبنانية.

٢١.أوزتونا، يلماز، ١٩٨٨م، تاريخ ا لدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سليما، إستنبول، منشورات فيصل للتمويل.

٢٢.أوغلي، إحسان،١٩٩٣م، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، إستانبول، د.د.ن، .

٢٣.بروكلمان، كارل،١٩٩٣م، تاريخ الشعوب الإسلامية، تر.نبيه فارس ومنير البعلبكي، بيروت، دار العلم للملايين.

٢٤.الجندي، خالد،(ب،ت)، الحياة العلمية والثقافية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، دراسات جامعية – قسم الآداب والعلوم الإنسانية، مؤتمر تاريخ لبنان في الصحافة اللبنانية، منشورات الجامعة اللبنانية.

٢٥.الحصري، ساطع، ١٩٥١م حولية الثقافية العربية،القاهرة، جامعة الدولة العربية.

٢٦.سلطان، علي،١٩٩١م تاريخ الدولة العثمانية، مكتبة طرابلس العلمية، ليبيا.

٢٧.شلح، محمد،٢٠٠٣م،التعليم في فلسطين في العهد العثماني ١٥١٦- ١٩١٧، القاهرة، دار الإحياء الثقافي.

٢٨.الصلابي، محمد،٢٠١٠م،السلطان محمد الفاتح فاتح القسطنطينية، ط٢ بيروت، المكتبة العصرية.

٢٩.الطباع، عثمان،١٩٩٠م، إتحاف الأعزة في تاريخ غزة ،غزة، مكتبة اليازجي.

٣٠.عباس، احسان، ١٩٩٣م، فصول حول الحياة الثقافية والعمرانية في فلسطين،عمان،المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

٣١.عبد المهدي،عبد الجليل١٩٨٩م، المؤسسات التعليمية والثقافية في بلاد الشام، عمان، مؤسسة آل البيت.

٣٢.عبد الهادي، جمال، محمد سعود، ووفاء محمد رفعت،٢٠٠م، صفحات مطوية في تاريخ وحضارة الدولة العثمانية، ط١، دار السلام للطباعة والنشر.

٣٣.العسلي، كامل،١٩٨١م، معاهد العلم في بيت المقدس، عمان،عمال المطابع التعاونية.

٣٤.عماد، عبدالغني،١٩٩٣م ، بيروت، السلطة في بلاد الشام في القرن الثامن عشر، دار النفائس.

٣٥.الغصيني، رؤوف،١٩٦٤م، ، الدولة والتعليم الخاص في لبنان، بيروت، منشورات الجامعة الأميركية.

٣٦.قبيسي، حسان،١٩٩٩م، الدولة والتعليم في لبنان، ط١، الهيئة العلمية اللبنانية للعلوم التربوية.

٣٧.القطشان، عبد الله،١٩٨٧م، التعليم العربي الحكومي إبان الحكم التركي والانتداب البريطاني ١٥١٦- ١٩٤٨، عمان، دار الكرمل.

٣٨.كولن، صالح،٢٠١١م، سلاطين الدولة العثمانية، مصر، دار نيل للطباعة.

٣٩.المحامي، محمد،١٩٨٣م، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق احسان حقي، ط٢، بيروت، دار النفائس.

٤٠.مدحت حيدر، علي، مرآت حيرت،١٣٢٥هـ، مطبعة الهلال، استنبول.

٤١.نخلة، محمد،١٩٨٢م، تطور المجتمع في فلسطين في عهد الانتداب البريطاني ١٩٢٠ – ١٩٤٨، الكويت، منشورات ذات السلاسل.

٤٢.العيدروس، محمد،١٩٩٠م، الحياة الفكرية في شرق الجزيرة العربية في العهد العثماني (١٨٧٠- ١٩١٢)، تونس، مج التاريخية المغربية، ج ٥٧-٥٨ .

٤٣.مصطفى، أحمد،١٩٨٨م، حفاظ العثمانيين على التراث العثماني، المجلة العربية للعلوم الإنسانية جامعة الكويت،مج١،ج٣٣.

٤٤.النمر، إحسان، تاريخ جبل نابلس، ط٢، ج٢، جمعية عمال المطابع التعاونية، نابلس، ١٩٧٥.

٤٥.أحمد، محمد،١٩٨٣م، مؤسسة الأوقاف في العراق ودورها التاريخي المتعدد الأبعاد، بغداد، ندوة مؤسسة الأوقاف في العالم الإسلامي.

٤٦.عبد اللطيف، زهير،١٩٩٦_١٩٩٧م، التعليم في مدينة الناصرة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ١٨٥٠-١٩٢٠، بيروت، المؤتمر الدولي الثاني للدراسات الفلسطينية .

List of sources and references in English

− Ibrahim, Ali Muhammad, Social and Intellectual Life in the Ottoman Empire (1808 - 1908 AD), Istanbul, 1973 AD.

− - Abu Ghanima, Ziyad, Bright Aspects in the History of the Ottoman Turks, 2nd edition, Dar Al-Furqan, Jordan, 1986 AD.

− - Al-Abyad, Anis, Scientific Life and Centers of Science in Tripoli from the last quarter of the nineteenth century until the beginning of the French Mandate era, Lebanese University Publications, 1980 AD.

− Ahmed, Muhammad Sharif, The Endowments Foundation in Iraq and its multi-dimensional historical role, Symposium on the Endowments Foundation in the Islamic World, Baghdad, 1983 AD.

− - Oztuna, Yilmaz, History of the Ottoman Empire, translated by Adnan Mahmoud Suleiman, Volume 2, Faisal Finance Publications, Istanbul, 1988.

− - Ogli, Ikmel al-Din Ihsan, The Ottoman Empire, History and Civilization, Trans.: Salih Saadawi, Istanbul, 1999 AD.

− Brockelmann, Karl, The History of Islamic Peoples, narrated by Nabih Fares and Mounir Baalbaki, Dar Al-Ilm Lil-Malayin, Beirut, 1993 AD.

− Al-Jundi, Khaled, Scientific and Cultural Life in the Last Quarter of the Nineteenth Century and the Beginning of the Twentieth Century, University Studies - Department of Arts and Human Sciences, Conference on the History of Lebanon in the Lebanese Press, Lebanese University Publications, Lebanon.

− - Al-Husri, Sati', Arab Cultural Yearbook, Arab State League, Cairo, 1951 AD.

− - Sultan, Ali, History of the Ottoman Empire, Tripoli Scientific Library, Libya, 1991 AD.

− Shalah, Muhammad Abdullah, Education in Palestine during the Ottoman Era 1516-1917, Dar Al-Ihya Al-Thaqafi, Cairo, 2003 AD.

− - Al-Sallabi, Muhammad Ali, Sultan Muhammad the Conqueror, Conqueror of Constantinople, 2nd edition, Al-Maqtabah Al-Asriyah, Beirut, 2010 AD.

− Al-Tabbaa, Othman, Ithaf Al-Azza fi Tarikh Gaza, edited by Abdul Latif Zaki, Al-Yaziji Library, Gaza, 1990 AD.

− - Abbas, Ihsan, Chapters on Cultural and Urban Life in Palestine, Arab Foundation for Studies and Publishing, Amman, 1993 AD.

− Abdul Latif, Zuhair Ghanayem, Education in the city of Nazareth in the second half of the eighteenth century 1850-1920 AD, Second International Conference for Palestinian Studies, Birzeit, 13-15/1996-1997 AD.

− - Abdul Mahdi, Abdul Jalil, Educational and Cultural Institutions in the Levant, Part 2, Al-Bayt Foundation, Amman, 1989 AD.

− Abdul Hadi, Jamal, Muhammad Saud, and Wafa Muhammad Rifaat, Folded Pages in the History and Civilization of the Ottoman Empire, vol. 2, 1st edition, Dar Al Salam Printing and Publishing, 2009 AD.

− - Al-Asali, Kamel, Institutes of Science in Jerusalem, Cooperative Printing Press Workers, Amman, 1981 AD.

− - Imad, Abdul Ghani, Authority in the Levant in the Eighteenth Century, Dar Al-Nafais, Beirut, 1993 AD.

− Al-Aidarous, Muhammad Hassan, Intellectual Life in Eastern Arabia in the Ottoman Era (1870-1912 AD), Moroccan Historical Journal, No. 57-58, Tunisia, July 1990 AD.

− - Al-Ghousaini, Raouf, The State and Private Education in Lebanon, American University Publications, Beirut, 1964 AD.

− Qubaisi, Hassan, State and Education in Lebanon, 1st edition, Lebanese Scientific Authority for Educational Sciences, 1999 AD.

- - Al-Qatshan, Abdullah, Public Arab Education during Turkish Rule and the British Mandate 1516-1948, Dar Al-Carmel, Amman, 1987 AD.

- Gülen, Saleh, Sultans of the Ottoman Empire, Trans.: Mona Gamal al-Din, Nile Printing House, Egypt, 2011 AD.

- Lawyer, Muhammad Farid Bey, History of the Ottoman Empire, edited by Ihsan Haqqi, 2nd edition, Dar Al-Nafais, Beirut, 1983 AD.

- - Medhat Haider, Ali, Mirat Bewildered, Tar Sawsan Agha Qassab, Al-Hilal Press, Istanbul, 1325 AH.

Mustafa, Ahmed Abdel Rahim, The Ottomans' Preservation of the Ottoman Heritage, Arab Journal for the Human Sciences, No. 31, Volume 1, Kuwait University, 1988 AD.

- - Nakhleh, Muhammad Orabi, The Development of Society in Palestine during the British Mandate 1920-1948, That Al Salasil Publications, Kuwait, 1982 AD.

- - Al-Nimr, Ihsan, History of Jabal Nablus, 2nd ed., Part 2, Cooperative Printing Press Workers Association, Nablus, 1975 AD.